الآداب
المجلد: 25، العدد: 01، ديسمبر 2025
الصفحات: 309 – 321
ISSN 1111 –4908 EISSN 2588 –2228

المحاجة بالأمثال والحكم عند البشير الإبراهيمي

Argumentation Using Proverbs and Wisdom Sayings in the Works of Al-Bashir Al-Ibrahimi

د. صفية مكناسي

جامعة أمحمد بوقرة بومرداس – الجزائر، s.meknassi@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال: 2024/09/10 **تاريخ القبول:** 2025/10/26 **تاريخ النشر:** 2025/12/11

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثيّة قضية الحجاج والتّواصل، وهل كلّ تواصل بضرورة يكون حجاجيّا، و بالتّحديد تركز على مسألة المحاجّة بالأمثال والحكم في الخطاب النّهضوي عند زعيم الإصلاح الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وتسلط الضوء على الدور الفّعال الّذي تلعبه الأمثال والحكم في تعبئة النّفوس وتحريك هممها نحو التّغيير، وذلك باعتبار المثل في الخطابة يقوم مقام الاستقراء في المنطق، الأمر الذي خوّل له أن يكون استقراء بلاغيّا من مكمن وقوعه حجة تقوم على المشابهة بين حالتين، يراد استنتاج نهاية احدهما إلى نهاية مماثلتها، و عليه فالإشكالية المطروقة ما القيمة الحجاجيّة للأمثال والحكم في الخطابات الاقناعية، وما الدور الّذي تشغله في إستراتيجيّة الإذعان؟

الكلمات المفتاحية: *الحجاج؛ الخطاب؛ المثل؛ الاستشراف؛ الإبراهيمي.*

Abstract:

This research paper examines argumentation and communication, questioning whether all forms of communication are inherently argumentative. Specifically, it investigates the use of proverbs and wisdom sayings as tools of argumentation in the reformist discourse of Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi, a prominent figure in the Islamic Renaissance movement. The paper highlights the significant role that proverbs and wise sayings play in inspiring and motivating people to make positive changes. In rhetorical practice, the proverb functions like induction in logic, serving as a form of reasoning based on analogy between two similar situations, where a conclusion drawn from one is extended to the other. Therefore, the main question is: What is the argumentative value of

المؤلف المراسل: صفية مكناسي.

proverbs and wisdom sayings in persuasive discourse, and what role do they play in strategies of persuasion?
Keywords: *argumentation; discourse; proverb; foresight; Al-Ibrahimi.*

مقدمة:

تعتبر قضية المحاجة بالأمثال والحكم من الأساليب الأدبية التي يلجأ إليها الأدباء قي تأثيث الخطاب الذي يحمل سمة الإقناع، من مكمن وقوعها في قلب المتلقي موقع التأثير، لما تحمله من مقبولية وتحوزه من استحسان، نرنوا من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف على أهم أوجه الاستخدام الحجاجي للأمثال والحكم، من منطلق كونها حجة جاهزة، إلى كونها نتيجة حتمية لفرضيات حجاجية معروضة، إلى اعتبارها مبدأ حجاجيّا يقوم عليه فعل المحاجة، وغيرها من أوجه الاستخدام المتعدّدة، وذلك من خلال الإجابة عن الإشكالية المطروقة وهي:ما مدى تجليات الحجاج في الخطاب النهضوي ؟ وماهي طرائق استحضار الأمثال والحكم في فعل المحاجة؟ وأساليب ورودها في الخطاب الأدبي عند البشير الإبراهيمي؟ وذلك من خلال الإجابة عن التّساؤل العام، والمتمحور حول حضور الأمثال والحكم في الخطاب الإصلاحي الجزائري، ومدى فعاليته في تحقيق المبتغى الحجاجي من هذا الخطاب، من خلال المنهج الوصفي المعتمد على آلية التّحليل والاستقراء.

توطئة:

شكلت الأمثال والحكم معينا تراثيّا هامّا يسترفد منه الأدباء والكتاب بما يناسب مقام الأداء ومستوياته وتشمل هذه المأثورات الشّعبيّة "حكمة الشّعب أو عرفه وتعاليمه، حيث الحكمة كلمة جامعة تلخص نظرية، أو مجموع ملاحظات وتجارب، في حين أن الأمثال حكايات مليئة بالكتابات والرموز، يخفي وراءها منشئوها ما يردون من نصح وعظة"[1]، وكذلك المثال هو المقدار من الشبه، وما "جعل مثالا أي مقدارا لغيره يحتذى به، والأمثل هو الأفضل والطريقة المثلى هي الأشبه بالحق والتمثال الصورة"[2].

يتميز المثل بتأثيره وإيجازه بصورة عفوية، وهو "يشبه الحكمة في إيجازه وتركيزه غير أنّه ألصق بالنّفس، لأنّه ينبع من أناس بسطاء لا علماء ولا مفكرين"[3]ولقد أدرك البلاغيون أهميّة المثل ودوره في إحداث الإقناع حيث ذهب ابن وهب إلى القول "وأمّا الأمثال فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال

ويبينون للنّاس بتعرف الأحوال بالنّظائر والأشكال، ويرون هذا النّوع من القول أنجع مطلبا وأقرب مذهبا"[4] في الوصول إلى مبتغى الخطاب.

كما ارتبط المثل أيضا "بالممارسات الإنسانيّة في صورتها العمليّة المرتكزة أساسا على مطلب التّبرير والتّبليغ لأجل إقناع المتلقيّ والتّأثير فيه"[5] وإلى مثل ذلك ذهب الزركشي، حيث المثل في تقديره "يستعمل لإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما تجر به العادة، وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة"[6] من هنا فالمثل "استقراء خطابي يتم التّنقل فيه من الخاص إلى الخاص بواسطة الحلقة الضمنية للعام، إنّه مماثلة إقناعيّة، ودليل يكون بواسطة قياس المشابهة"[7].

إنّ المثل في الخطابة يقوم مقام الاستقراء في المنطق من مكمن وقوعه حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها يراد استنتاج نهاية إحداهما إلى نهاية مماثلتها[8]، فالمثل يعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة وركيزة هامّة من ركائز إحداث الإقناع والتّأثير، عن طريق التّمثيل والاستشهاد، ولما كان التّمثيل بمختلف أشكاله تقتضيه المواقف العمليّة والخلقيّة والتّربوية، لما له من قدرة كبيرة على التّبرير، فإنّه يحضر وبشكل كبير في الخطابات النّهضويّة التّي تقصد الاستمالة، لتحويل فكر الآخر نحو التّغيير، "و تعدّ الأمثال والحكم من أهم الأشكال الأدبيّة المكثفة القادرة على نقل المعاني، والتّجارب والأفكار في سياق إيديولوجي تواصلي تفاعلي بين أبناء البيئة الواحدة، بل والوعي الإنساني بصفة عامّة، فالأمثال مرآة الشّعوب الموشومة بتجاربها، وقدرتها على نقل الواقع الحسي الملموس في صورة عبارة مركزة، عظيمة الأثر في نفوس متلقيها تتسم بطبيعة ديناميكية تسمح لها بالانتشار والحفظ والذيوع في سهولة ويسر"[9].

من الرّوافد الثّقافية الّتي دعّم بها الإبراهيمي خطابه النّهضوي تلك الأمثال والحكم والمأثورات الّتي "تتضمن خبرات الشّعوب وحكمها، وخلاصة تجاربها الحياتيّة، وتمثّل مضامينها ومحتوياتها مجموعة الحقائق والمعاني الكليّة"[10] المستهدف ترسيخها كبعد حجاجي في الخطاب، قصد التّأثير في المتلقّي، وتحقيق الرّسالة المرصودة من وراء إقناعه؛ وقد "اعتنى العرب بالأمثال مقتحمين كل ميادينها فكان لكلّ ضرب من ضروب حياتهم مثل ينتهج به"[11]وتُستدعى هذه الأمثال والحكم كمبادئ حجاجيّة باعتبارها "مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة"[12]، بين طرفي الخطاب، كما توظّف أيضا في" الخطاب من مكمن وقوعها حججا جاهزة، ذات البعد الحجاجي القويّ، والمؤثر شأنها شأن الشّواهد"[13] والبّراهين الّتي

تستدعى قصد الاستدلال، والبرهنة على قضية من القضايا المطروحة للجدال، كما ترد أيضا على أساس كونها نتيجة مرصودة لحجج أطرت قضية معينة.

1- استحضار المثل كنتيجة للحجج المعروضة

يتوجّه الإبراهيمي في خلاصة كلمته الأخيرة للأمة الجزائرية، مترصدا حقائق المستعمر قصد توجيه المتلقين صوب الاعتبار، مستفهما ومتسائلا في الآن عينه قائلا: "

أما آن لعشاق سلمى أن يقولوا: صحا القلب عن سلمى؟

أما آن للحالمين بالوحدة الفرنسيّة أن ينفضوا عنهم الأحلام؟

أما آن للمنتظرين أن يقطعوا حبل الانتظار؟

أما آن للمستعصمين بالأمل أن يريقوا صبابة الأمل؟

يا هؤلاء إنّ الاستعمار شيطان، وإنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، وإنّ الاستعمار شرّ، ومحال أن يأتي الشّرّ بالخير، ومحال أن يجيء من الشّوك العنب"[14].

حتّى يتمكّن الإبراهيمي من ترسيخ حقيقة المستعمر في الأفئدة، ويقطع حلم الحالمين وأمل المنتظرين، وشكّ المكذبين باليّقين القاطع والبرهان السّاطع، ذهب مؤكدا أنّ الاستعمار شيطان والشيطان عدو، فيجب اتخاذه عدوا، وأنّه شرّ محال أن يأتي بالخير، ثمّ استدعى في نهاية عرضه لهذه الحجج المثل المشهور "**إنّك لا تجني من الشّوك العنب**" كنتيجة أو خلاصة لتلك الحجج، والبراهين المؤكدة لحقيقة المستعمر.

فالمثل في هذا المقطع اعتمد كنتيجة تدعم الحجج المعروضة، وتعمل على تقويّتها في خدمة البعد الحجاجي العامّ للخطاب، وهو التّحذير من المستعمر، ومن سياسته الخبيثة في محاولة تدجين العقول الغافلة، التّي لابسها الشّك ولو للحظة في أن الاستعمار فتح مبين، فشبهه في البداية بكونه شيطان، وشيطان عدو يجب اتخاذه كذلك، ثمّ عزّز ذلك بالمثل الّذي مفاده أن الشّوك أبدا لا يثمر عنبا، و"المحاجة بواسطة المثل تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة الخاصة التّي جيء بالمثل لدعمها وتكريسها"[15] والخلاف يكمن هنا في فهم حقيقة المستعمر، فهناك من العقول الغافلة الّتي راودها الشّك في ذلك، فراحت تأمل الخير من هذا الشّر الجلي، فجاء الخطاب النّهضوي هنا لدحض هذه الشّكوك بالحقيقة.

2- توظيف المثل كحجة جاهزة

ردا على سياسة التّسويف الّتي تنتهجها الحكومة الفرنسيّة، في تمديد عمر قضية فصل الدين عن الحكومة والاحتجاج بأنّ هناك اختلاف حول هذه القضيّة بين أفراد الأمة الجزائرية، هذا الاختلاف الّذي صورته الحكومة الفرنسيّة، وأوجدت له أتباعا، لتعطيل القضية وتمويهها، وتغطية الحقائق عنها، يذهب الإبراهيمي إلى القول: "إنّ ما تقوله الحكومة ويقوله هؤلاء الخصوم (المصوّرون) من أنّ الخلاف بيننا وبينهم اختلاف حال، ويعنون في الكيفيّة الّتي يقع عليها الفصل، والأيدي الّتي تتناول الشّيء المفصول، فهو قول يقصد منه معنى ستر العورة بسربال فيفهم معنى تغطية الشّمس بغربال"[16].

استعدى الإبراهيمي في هذا القول الحجاجي المثل القائل: **"فلان يغطي الشّمس بالغربال"** للاستدلال على صنيع الحكومة الفرنسيّة، وبتواطؤ من الحكومة الجزائرية المزعومة، حيال قضية فصل الدين عن الحكومة، وأنّ كلّ المزاعم والأقوال مجرد سياسة للتّعطيل ليس إلاّ، وتغطيّة الحقائق الواضحة الجليّة بشيء ليته يغطيها ويسترها، وإنّما يفهم من وراء ذلك مباشرة سياسة التّسويف والتّلاعب والتّثاقل، من هنا جاء المثل الموظف حجّة جاهزة، وقويّة دالّة دلالة واضحة على هذه السياسة المنتهجة، فقد جيء "بالمثل باعتباره حجة ولكنه ليس حجة عادية، إنّه حجة قويّة وجاهزة مثله مثل الشّواهد وأقوال العلماء والحكماء وهذه الحجج لها قوّة حجاجيّة عالية"[17]في توجيه الخطاب الوجهة المبتغاة.

3- ورود المثل كمبدأ حجاجي

هناك حالة ثالثة لا يدرج فيها المثل في أحد المنطقتين السّابقتين، وهي الّتي يقوم فيها المثل بدور المبدأ الحجاجي الإقناعي (Topos)، أي يتم استدعاءه في الحوار، أو توظيفه في الخطاب، باعتباره مسلمة استدلاليّة منطقيّة حجاجيّة، وباعتباره ضامنا "garant" يضمن الرّبط والتّعالق بين المتغيرين الحجاجين (Les variables argumentatives)، أي "بين النتيجة الّتي تهدف إليها والحجّة الّتي تخدمها وتؤدي إليها"[18]؛ وهذا ما نجده في المقطع الحجاجي الّذي حاول فيه الإبراهيمي الاحتجاج لأشكال التّدخلات الفرنسيّة في القضايا الشّرعية والدينيّة والاجتماعية، والّتي هي من محض خصائص الأمة الجزائرية المسلمة، حيث ذهب قائلا: "نعتقد أنّ المثقفين من أعضاء المجلس المسلمين كانوا يعتقدون في القضية خلاف ما يعتقد زملاؤهم، كانوا يعتقدون أنّ هذه المسألة الدينية يجب الرجوع فيها إلى أهل العلم بالدين ولكن صوت الحقّ في هذا المجلس تعلوه أصوات الباطل والجهل، فلا تدع قائل الحقّ يقول، ولا تسمعه إذا قال، لأنّ المجلس كان مأخوذا بسحر الوحي ورهبته، فلم يفق من غشيته حتّى نزل الوحي الثّاني بالمجلس

وقيل له قف.. فإنّ القضيّة ليست من خصائصك، وإنّما هي من خصائص وزير العدل الفرنسي في باريس.

ليت شعري هل كان هذا مجهولا يوم وضعت القضيّة في جدول الأعمال؟

لا نعني أعضاء المجلس بهذا السؤال فقد قرأنا في الأمثال **أنّ الحائط قال للوتد لم تشقني؟ فقال له: سل من يدقني؟"**[19].

استدعى الإبراهيمي هذا المثل للاستدلال على أنّ القضية أعلى من مشورة الأعضاء المسلمين، وأنّهم مجرد كراسي تحملها كراسي، أمّا الرأي والتّدبير والتّخطيط فهو من صلاحيات الوزارة الفرنسيّة، وهذا المثل وقع رابطا بين الحجّة والنتيجة المؤدية إليها، بحيث تمثلت الحجّة في كون صوت الباطل يعلو صوت الحقّ في هذا المجلس، وكان مؤدى هذه الحجّة هذه التّدخلات والّتشريعات التّعسفيّة، وقد وقع المثل في هذا المقطع ضامنا للربط بين المتغيرين الحجاجيين في هذا التّمثيل، بين الحال الأولى، وهي حال الحائط الّذي سأل الوتد لم يشقه، فأجابه بأنّ المسألة تتجاوزه إلى الذي يدقه، ويُضرب هذا المثل في المواقف الّتي تتجاوز الظاهر في الصورة إلى الفاعل الحقيقي المختفي وراء الصورة.

أيضا من المواضع الّتي وقع فيها المثل مبدأ حجاجيا ما نجده في قول الإبراهيمي في شأن القوانين الجائرة الصّادرة في حقّ التّعليم العربي، "فهذه القرارات الفرديّة وهذه القوانين البوليسيّة، لم توضع لإصلاح شيء وإنّما وضعت لإفساد شيء، فإذا احتيج إلى شيء فيرجع فيها إلى الفقهاء المفسرين، قالوا: وهي قبل وبعد قوانين استعمار قلت لهم، ولا تزول إلا بزوال الاستعمار، قالوا: لا يبنى على الصالح إلاّ الصالح قلت: وكلّ ما بني على الفاسد فهو فاسد"[20].

يستدل الإبراهيمي في هذا المقطع الحجاجي بالقاعدة القائلة "**ما بني على فاسد فهو فاسد**" كمبدأ حجاجي ومسلمة منطقيّة، على تلك القوانين التّعسفيّة، الّتي وضعت خصيصا لإفساد التّعليم العربي وتعطيله، وكانت النتيجة في ذلك أن زوالها مرتبط بزوال الاستعمار، وبقاؤها مرهون ببقائه، وقد كانت "هذه القاعدة رابطا بين طرفي القول الحجاجي، وإطارا للحجاج والاستدلال وضامنا لتحققه وتناميه بشكل طبيعي"[21].

4- استخدام المثل للاستدلال:

هناك من الأقوال والأمثال " ما له قصة تروى، وهي مضرب المثل، يستشهد بها من أجل الاعتبار"[22] وهذا ما نلمسه من تضمين الإبراهيمي للقول المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم "أجرنا من أجرت يا أم هانئ" أو "يسعى في ذمتهم أدناهم" قصد الاستشهاد لمعاملة الدّين الإسلامي للمرأة واحترامه لها على عكس ما يتقوّله القائلون، بأنّه ظلم المرأة وحرمها حقّها في التّعبير والانتخاب، ليتخذوا من هذه الأكاذيب ذريعة للتّأثير على الأمة الجزائرية من مكمن استقرارها، وهي الأسرة الّتي تتربع على رقيها واستقرارها وتقدّمها وتماسكها امرأة صالحة، وأم عاقلة، وبنت نبيهة، وزوجة ذكيّة وفيّة، "لأنّ الإسلام في جملته لا يزجّ بالمرأة في هذه المضايق وفي كلّ ما يجرّ إليها، رفقا بها وإبقاءً على شرفها، ورعاية لرقة شعورها ولطافة جوهرها، لا احتقارا لمنزلتها، ولا استخفافا بشأنها، وإنّه يسوي بينها وبين الرجل في كثير من منازل الكرامة والاعتبار، حتّى إنّه ليجير إجارتها للجاني والفار بخربة، بدليل حديث (ويسعى بذمتهم أدناهم، وحديث (أجرنا من أجرت يا أم هانئ)"[23].

إنّ الدليل الوارد في هذا المقطع الحجاجي شاهد قوي، وحجّة دامغة عن معاملة الإسلام السّمحة للمرأة من جهة، ومن جهة ثانية يكشف النيّة الخبيثة وراء هذه الأقاويل الكاذبة، والّتي غايتها هدم استقرار الأسر والتّربع على عرش خرابها ودمارها، "فإذا كانت أوربا على عراقتها في الحضارة والعلم، لم تفكر بعض أممها في إعطاء هذا الحقّ للمرأة إلاّ في السنوات الأخيرة، وفي ظروف استثنائية كما يقولون، فكيف تقدِم حكومة الجزائر ومجلسها على هذه الطفرة بالمرأة العربية المسلمة، وهي مازالت في الدّرك الأسفل من الانحطاط، وهلا فكروا في تقويّة عقلها بالعلم، وفي تقويّة جسمها بالغذاء، وفي حفظ صحتها بالعلاج وفي حفظ نسلها بالرعاية، وفي تخفيف ويلاتها بالاهتمام، أم هم يعتبرون المرأة العربية المسلمة في الجزائر قطعة من المرأة الفرنسيّة في أوربا"[24]، متنصلة عن أخلاقها وفطرتها، خادمة لسيدها في لبوس مخدومة؛ أمّا الإسلام فقد احترم المرأة، وكرّمها بدليل أنّها كانت تجير تماما مثل الرجل، ولها صوت مسموع، وشرف محفوظ ومكانة مصونة.

5- استدعاء الوقائع كشواهد لتعزيز فعل المحاجة:

يتخذ الإبراهيمي من الوقائع والأحداث التّاريخية ركائز قصد الاحتجاج على القضايا المطروحة في جدول أعمال الحركة الإصلاحية، وقد اعتمدها كشواهد تغذي الخطاب، وتذكّي بُعده الحجاجي باعتبارها مرجعا هامّا وأساسيا في الذاكرة الشّعبيّة، إليها تذهب الأنظار وبها تسترشد الأبصار.

يحتج الإبراهيمي على بطلان وظيفة المفتي من طرف الحكومة الفرنسيّة، لأنّ "وظيفة المفتي من أساسها تزوير على الإسلام، لأنّ الفتيا في الحلال والحرام حقّ على كلّ عالم بالأحكام، مستوف للشّرائط المقرّرة في الدين، وإنّ وجود وظيفة مفتي حنفي في الجزائر تزوير على المذهب المالكي، وأين العاصمي، ومن جرى مجراه من فقه أبي حنيفة ودقائقه وقياسه؟ إنّ نسبة الحنفي تشترك في بني حنيفة وأبي حنيفة، فلينظر العاصمي أشبه النسبتين به، وبنو حنيفة هم قوم مسيلمة الكذّاب الّذين آووه ونصروه، ومن غرائب الشّبه أنّ مسيلمة الحنفي كان تشوشا على النبوة الحقّة، وأنّ المفتي الحنفي كان تشويشا على مطالب المسلمين الحقّة"[25].

قصد إقامة الحجّة على بطلان وظيفة المفتي الموكّل من طرف الحكومة الفرنسية، يستشهد الإبراهيمي بواقعة مسيلمة الكذّاب الّذي افترى على النبوة الحقّة، واعتبر نفسه نبيا يوحى إليه بهتانا وكذبا، وذلك لعقد المقارنة والمشابهة بين هذه الواقعة وبين الواقعة الجديدة، الّتي افترى فيها المفتي الحنفي المزعوم على المذهب الحنفي كذبا وزورا، ولاءً للوظيفة والأجر ووفاءً للأسياد، فتدخل فيما لا علم له فيه، ولا فقه ولا قياس فكان تشويشا على المذهب، وافتراءً على أهله وعلمائه، وعلى قياساتهم ودقائقهم، بالإضافة إلى وقوعه تزويرا على المذهب المالكي، وهو المذهب الأصلي المعتمد في المنطقة، ومن مظاهر السّخرية أنّه انتسب إلى بني حنيفة أتباع مسيلمة الكذّاب، وابتعد كلّ البعد عن أبي حنيفة، وهذا ما دل عليه الشّاهد الحجاجي في هذا القول.

فالشّاهد في القول الحجاجي توكل له مهمة إضفاء القبول على الفكرة الجديدة، أو القضية الجديدة والاحتجاج لها، وذلك "باللّجوء إلى حدث قديم، واقعي أو خرافي، أو أسطوري، أو منتمٍ إلى التّراث الأدبي فتسلك بذلك الفكرة الجديدة، أو الواقعة المطروحة ضمن نفس الخيط الّذي يسلك فيه الحدث القديم أو الموروث، فتعتبرهما معا يندرجان ضمن نفس الصنف من الوقائع، ولهما نفس درجة القبول والإقناع عند

المتلقين، مع اشتراط أنّ تكون الواقعة القديمة المسند إليها الشّاهد واضحة ومعروفة"[26]، أي تكون من المسلمات والمعتقدات المشتركة، وتنضوي على قدر كافٍ من القبول.

يستشهد الإبراهيمي بواقعة من وقائع بني العباس في إشادته بصنيع جمعية العلماء المسلمين في مسار العلم والتّعليم قائلا: "تغالى خلفاء بني العباس في تشييد قصورهم، وعمروها بأسباب التّرف المادي، ووسائل اللّذات الجسمانيّة، وأصبغوا عليها كلّ ما يستهوي من جمال وفن، وتسامت همّم الخلفاء إلى إظهار جلال الخلافة في البناء والتّشييد، فما قصّر في ذلك منهم أول ولا أخير، وباهت بغداد بتلك القصور أمصار العالم كلّه، ولكنّهم لم يهتدوا إلى البنية الّتي تحمل كلّ بناء، ولم ينفقوا في تشييد المدرسة بعض ما ينفقون في تشييد القصر من مال وعناية وذوق، إلى أن جاء أحد وزرائهم فسبق للمنقبة الّتي تغطى المناقب، وشاد المدرسة النّظاميّة، هنالك علمت بغداد أنّ كلّ ما حازته من جمال كانت تنقصه نقطة الجمال، وأنّ كلّ ما وصلت إليه من عظمة كان ينقصه سرّ العظمة، وأنّ كلّ ما كتب عنها التّاريخ، ودوّن وصفها الشّعر خيال أيدته هذه الحقيقة"[27].

يؤكد الإبراهيمي من خلال هذا الاستشهاد بهذه الواقعة التّاريخيّة، على أنّ حياة الأمم ورقيها وتحضّرها مرتبط ومتعلّق بالمدرسة والعلم والتّعليم، وما عدا هذا فهو نافلة قول وزخرف عمل، لأنّ "الحياة بالعلم والمدرسة منبع العلم ومشرَع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشّريفة، فمن طلب هذا النّوع من الحياة من غير طريق العلم زلّ، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضلّ، وحياة الأمم الّتي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك"[28].

من وقائع بني العباس الّتي ساقها الإبراهيمي للاستشهاد على الأحداث المعاصرة له، وإقامة الحجّة لها أو عليها، نجد كثرة الفرق والأحزاب الّتي شتّت لمّ الوحدة العربية، وهتكت بأمنها وصيّرتها لقمة سائغة للذئاب البشرية المفترسة، "فقد أصبح هذا الشّرق في تعدّد أحزابه السياسيّة كعهده في الخلافة العباسيّة يوم كان كلّ خلاف جدلي في لفظة يسفر عن فرقة أو فرق، وكلّ مجلس مناظرة بين فريقين ينفض عن ثالث ورابع، وتراهم يقولون أنّ كثرة الأحزاب في الأمة عنوان يقظتها وانتباهها، وضمان وصولها إلى حقها ولكنّنا لم نر من تعدد الأحزاب إلاّ نقصا في القوّة ونقصا للوحدة، وتنفيسا للخصم، واشتغالا من بعضهم ببعضهم، وتعالت كلمة القرآن، فإنّه لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجمع إلاّ في مقام الخلاف والهزيمة (فاختلاف الأحزاب من بينهم)، (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب)، ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ المفرد

إلاّ في مقام الخير والفلاح (ألا إنّ حزب الله هم المفلحون)، وإنّ حزب الله في الأمة الجزائرية هو جمعية العلماء، وإنّها لمفلحة لا محالة"[29].

إنّ استشهاد الإبراهيمي بهذه الواقعة التّاريخية دعوة إلى لمّ الشّمل والوحدة، وتوحيد الصف تحت لواء كلمة الحقّ، والابتعاد عن الأسباب المؤدية إلى التّشتت المحدق بأمن الأمم والشّعوب، وقد سيقت هذه الواقعة في القول الحجاجي لما تحمله من شحنات دلاليّة على الاعتبار، ومقارنة نهاية الأحداث مع بداياتها المؤدية إليها، من خلال الاستشهاد بنهايات الأحداث القديمة، المؤدية إليها نفس بدايات الأحداث الجديدة فالتّشابه في البدايات بين الحدثين يؤدي حتما إلى التّشابه في النهايات، ولهذا سيقت الحادثة القديمة بنهايتها في القول الحجاجي قصد أخذ العبرة وتوخي النّهاية المماثلة.

تعتبر عملية الاستشهاد بالوقائع والأحداث التّاريخية من المرتكزات الأساسية في الخطاب الإقناعي لما تحمله من قبول وإمكانية إقناع، فتستدعى قصد التّمثيل للأحداث الجديدة بغرض الاعتبار، وتوخي النّهايات المماثلة، ومن ثمّ إضفاء القبول وإمكانية الإقناع على الحادثة الجديدة، "إذ تعتبر الأقوال السّائرة، والأبيات الشّعرية، والأمثال والحكم ذات الوظيفة التّداولية والاستدلالية، والّتي تعبّر عن الحقائق العامة والمسلمات الكليّة أمثالا"[30] وشواهد تغذى بها الخطابات قصد حصول الإقناع، وذلك بالنظر لما تحمله من شحنات حجاجيّة عالية، قادرة على أسر المتلقّي واستمالة إذعانه، ومن ثمّة استدراجه نحو القضايا والمواطن المستهدفة.

خاتمة:

استرفد الإبراهيمي في خطابه النّهضوي من عدّة ينابيع شكّلت الخلفيّة الثّقافية عنده، منها والأمثال والحكم والمأثورات عن السلف الصالح، والوقائع والأحداث الّتي أثّثت تاريخ الأمة العربية الحافل بالأمجاد والبطولات؛ وإنّ اعتماد هذه الرّوافد الثّقافية في توجيه الخطاب نحو غايته، وتذكية بعده الحجاجي من شأنّه تحقيق الغاية القصوى منه، لأنّ هذه الخلفيات الثّقافية هي بمثابة الألغام المزروعة في النّصّ تؤتى أُكلها عند شدّ انتباه المتلقين لها وإذعانهم إليها، وهذا التّسليم هو ما يمنحها القوّة الحجاجية إذا استدعيت في الخطاب النهضوي، سواء وقعت حجّة أو نتيجة، أو مبدأ من المبادئ الحجاجية الدّالة على الوقائع المنتظرة والمتوقعة.

وقد وظف الإبراهيمي هذه المأثورات الشعبية من أمثال وحكم بما يخدم غاية الإصلاح دفاعا عن فكرة أو رد لها، أو سخرية من موقف ما، أو تهكما من معتقد خاطئ إلى غير ما هنالك من غايات ودوافع قادته إلى الاستعانة بالمأثور واستغلاله أمثل استغلال، بشكل ينم عن ثقافة موسوعية يمتلكها زعيم الإصلاح، وهضم التراث تمثله له، وإسقاطه على ما يدور من أحداث في هذا العصر.

تعتبر عملية الاستشهاد بالوقائع والأحداث التّاريخية من المرتكزات الأساسية في الخطاب الإقناعي لما تحمله من قبول وإمكانية إقناع، فتستدعى قصد التّمثيل للأحداث الجديدة بغرض الاعتبار، وتوخي النّهايات المماثلة، ومن ثمّ إضفاء القبول وإمكانات الإقناع على الحادثة الجديدة، وكذلك تعد شواهد تغذى بها الخطابات قصد حصول الإقناع، وذلك بالنظر لما تحمله من شحنات حجاجية عالية، قادرة على أسر المتلقّي واستمالة إذعانه، ومن ثمّة استدراجه نحو القضايا والمواطن المستهدفة، واستشراف الأحداث الموازية في المستقبل.

الهوامش والإحالات:

[1]- مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، 1979، ص: 178.

[2]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة مثل، ج1، ص:160 وما بعدها.

[3]- عبد المجيد الصغير، ضمن تكون المعارف، دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومحاضرات رقم 117، تنسيق بناصر البعزاتي، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2005، ص:151.

[4]- نانسي إبراهيم عباس سلامة، التعالق النصي في الخطاب النقدي والإبداع الشعري، رؤية للنشر والتوزيع، القاهر، ط1، 2014، ص:257.

[5]-ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة 1969ص:117-118

[6]- المرجع نفسه:ص:151.

[7]- الزركشي، البرهان، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 486/1.

[8]- رولن بارت، البلاغة القديمة، رؤيا للنشر، القاهرة، 2011، ص:105.

[9]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط2، 2002، المغرب، ص:85.

[10]-نانسي إبراهيم عباس سلامة، التعالق النصي في الخطاب النقدي والإبداع الشعري، ص:257

[11]– أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط01، 2010، ص: 82.

[12]–محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية في العصر الجاهلي، دار النفائس، ط1، 1988، ص:31.

[13]– أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، الأحمدية، المغرب، ط1، 2006–1426 ص: 33.

[14]– المرجع السابق، ص: 87.

[15]– الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر ص: 321.

[16]– عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ص:337.

[17]– المصدر نفسه، ص: 143–144.

[18]– أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص:87.

[19]– أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 81–82.

[20]– الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 133.

[21]– الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، ص: 257.

[22]– أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 93.

[23]– المرجع نفسه، ص: 88.

[24]– الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 127.

[25]– المصدر نفسه، ص: 127.

[26]– الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 73.

[27]– محمّد الولي، مفاهيم بلاغية، علامات، ع17، ص: 93.

[28]– الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 283–284.

[29]– المصدر نفسه، ص: 283.

[30]–الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 47.

[31]– أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص: 87.

المصادر والمراجع المعتمدة

1–البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الأمة للنشر، الجزائر، 2007.

2–أبوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010،

3–رولن بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رؤية للنشر، القاهرة، 2011.

4–الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، دتا

5–عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس.

6-عبد المجيد صغير، دور القياس التمثيلي في تكوين المعارف، مطبعة النجاح، المغرب، 2005.
7-مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، 1979.
8-محمد أبو علي توفيق، الأمثال العربية في العصر الجاهلي، دار النفائس، ط1، 1988.
9-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.
10-ابن منظور، لسان العرب، دارصادر، بيروت.
11-ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1969.
12-نانسي إبراهيم، التعالق النصي في الخطاب النقدي والإبداع الشعري، دار رؤية للنشر، القاهرة، ط1، 2014.